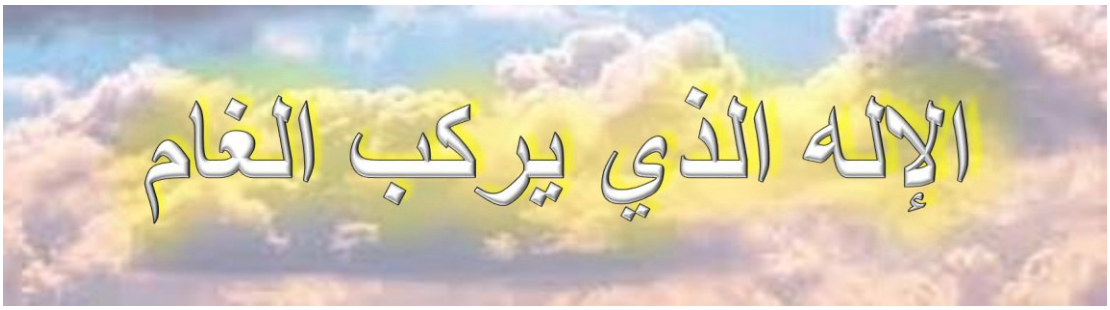

« ليس مثل الله يا يشورون يركب « السماء في معونتك ، والغمام في عظمته »

(تثنية ٣٣ : ٢٩)

عظة للدكتور عزت زكي

مرة أخرى نقف مع موسى ، على قمة جبل عباريم ... مرة أخرى نستمع الى صوته مباركا ، ومشجعا ، ومعزيا ، أسباط الشعب ٠ مرة أخرى نرى صورة ذلك الرجل الذي باركه الرب بفيض نعمته ، فاذا به يمسك بقيثارة الإيمان ، ويوقع عليها أحلى الأنغام ، هنا ينظر الى جماعات الشعب المنتشرة في الوديان ، ولكل سبط يقدم بركته ، ومواعيد الله له وما أحلاها من مواعيد ، بل ما أحوجنا نحن الى مواعيد الله في الظروف التي نجتازها .

آن مواعيد الله هي كالنجوم المتألقة في ظلمة الليل للسائح المسافر في البرية. انها اليد التي تمسك بيمين الإنسان ، في الوحشة والمخاوف . انها الأجنحة التي ترفعنا فوق مستوى المتاعب، والضيقات. انها الدفة التي توجه السفينة الى شاطىء السلام. انها المصباح الذي يهدينا في الطريق ، حتى ينفجر النهار ، ويطلع كوكب الصبح في قلوبنا .

وهنا نلتقي بعقد من جواهر نادرة ، يقدمه رب المجد عن طريق عبده ، هدية الى يشورون وعدد هذه الجواهر اثنتا عشرة جوهرة . وفي وسطها نرى لؤلؤة غالية كثيرة الثمن : « ليس مثل الله يا يشورون يركب السماء في معونتك ، و الغمام في عظمته . الإله القديم ملجأ ، والأذرع الأبدية من تحت » •

هنا نرى الله من كل جانب يحيط بنا .. من فوق يظللنا من اليمين واليسار يكتنفنا .. من خلف يضم ساقتنا ، ومن أمام يتقدمنا . أما من أسفل فالأذرع الأبدية من تحت) . ولنا تأمل مثلث٠

- ليس مثل الله ؟ ماذا يعني موسى بهذا القول ؟
- يركب السماء ، يركب الغمام؟ لماذا ؟
- الإله الذي يركب الغمام ؟ ماهو موقفنا منه ؟

ونختم بملاحظات ختامية .

أولا : « ليس مثل الله »

ماذا يعني رجل الله موسى بهذا القول الذي يفتتح به خاتمة نشيده ؟ أقول :

ا- ليس مثل الله في ذاته ، وصفاته :

وما أعظم صفات الله؟ ومن يستطيع أن يعدها؟ هل هي كنجوم السماء التي لا نستطيع أن نحسب عددها؟ هل هي كالرمل الذي على شاطئ البحر من الكثرة ؟ أليس من الخطأ أن نعد الإله غير المحدود بعدد معين لصفاته ، ونطلق هذه الصفات عليه ؟ ذلك لأن الصفة تطلق على الكائن البشري ، أما الله فهو جوهر كل صفة . هل هو رحيم؟ كلا . انه جوهر الرحمة و هل هو القدير؟ كلا . انه جوهر القدرة . الجبار ؟ كلا ، لأنه جوهر الجبروت . المحب؟ كلا . الأن الله محبة - ليس مثل الله يا يشورون .

ولعل موسى حينما نطق بهذه الكلمة ، كانت في ذاكرته آلِهة الأمم التي عرفها وعاصرها .

لقد كان المصريون يتعبدون للتماسيح، والقرود.. للحيات ، والجعارين .. للقطط والكلاب .. لعجول البقر، وغير ذلك ، ولكن هذه كانت نهايتها الموت ثم تحنط أجسادها لتحفظ ، وموسى يهتف « ليس مثل الله رب الحياة » .

أما في وسط القبائل الكنعانية ، ومعظم دول الشرق الأوسط ، فقد كانت تسود عبادة البعل ، بكل مراسيمها الوحشية ، وذبائحها البشرية ، ويهتف موسى « ليس مثل الله إله المراحم »•

وكانت احدى الربات المحببة لدى الفينيقيين أدونيس أو أفروديت الشرق ، التي كانت تستلزم عبادتها مراسيم دنسة ، وموسى يهتف « ليس مثل الله إلهنا ، إله القداسة) .

٢ - ليس مثل الله ممجدا في مخلوقاته

هل الخليقة الصامتة ؟ « السموات تحدث بمجد الإله ، و الفلك يخبر بعمل يديه ولا قول ولا كلام ... الى كل الأرض خرج منطقهم ، والى أقصى المسكونة كلماتهم » .

هل الخليقة . غير العاقلة ؟ ونقرأ في سفر الرؤيا عن تعبد الحيوانات الأربعة كيف انهم خروا وسجدوا للجالس على العرش •

حتى الأشجار يتحدث عنها المرنم « وكل شجر الحقل يصفق بالأيادي »•

فاذا أتينا للإنسان تاج الخليقة نستمع الى اشعياء النبي - يهتف بلسان الله قائلا « لمجدى خلقته وجبلته وصنعته »•

أو دعنا بعين الخيال نرى الملائكة وهم يهتفون أمام الله قائلين « قدوس . قدوس • قدوس رب الجنود مجده ملء كل الأرض » •

ان الذي يتأمل مصنوعات الله ، ومخلوقاته لابد وأن يهتف قائلا « أيها الرب سيدنا ما أمجد اسمك في كل الأرض » •

٣- ليس مثل الله في محبته ، واحساناته

يقول المرنم « باركى يا نفسي الرب ولا تنسي كل حسناته • باركى يا نفسي الرب ، وكل ما في باطنى ليبارك اسمه القدوس »٠

« لأنه مثل ارتفاع السموات عن الأرض قويت رحمته على خائفيه ، كبعد المشرق عن المغرب أبعد عنا معاصينا » .

« الساكن في ستر العلى في ظل القدير يبيت . « بخوافيه يظلك وتحت أجنحته تحتمى »٠ « الرب حافظك الرب ظل لك عن يدك اليمني » •

« الله لنا ملجأ وقوة عونا في الضيقات وجد شديدا »

هذا هو إله المحبة، والإحسان والرعاية . هذا هو إله الغمام العظيم الذي يسرع في الضيقات لنجدتنا. ان البشر في نجدتهم لإخوتهم قد تعيقهم العوائق، ولكن الإله الذي يركب الغمام ، لن يعيقه عائق . انهم قد يصلون بعد فوات الأوان، ولكن إلهنا يقول « أنا الرب أسرع به في حينه » ، وقبل أن نصرخ قائلين « يا رب نجنا لأننا نغرق » ، يمد صاحب اليد الجبارة ذراعه لينقذنا - يقول أحد شعراء الغرب : هناك عينان لا تغمضان تحت ستار الظلام ... هناك أذنان مفتوحتان لكل صرخة نداء ٠ هناك يمين معتزة بالقدرة تذوب من لمستها الجبال ٠٠هناك بحر محبة لا ينضب ، حينما تجف ينابيع البشر ٠وهذه كلها لي !!

ثانيا : الإله الذي يركب الغمام ، لماذا ؟

ما هو الدافع الذي يدفعه الى أن يطأطئ سماء مجده ليركب على السحاب ؟

1-أنه يركب الغمام في جلاله وبهائه :

ويا له من منظر رفيع عظيم ، يفيض بالجلال، والبهاء ؟ إله فوق السحاب؟ السحاب عرشه ، مركبته العظمى؟ . يا لها من صورة عجيبة مجيدة.

ومنذ القديم اختار الله صورة السحاب ليظهر بذلك مجده ، وجلاله ، وحضوره مع شعبه . أليس هو الذي كان يتقدم الشعب في السحابة في خروجهم من أرض مصر ؟. وفي السحابة كان سترا يظللهم بالنهار ، فلا تقع بهم ضربة من الشمس ، ونورا يهديهم بالليل ليرشدهم في الطريق ؟. ألا نرى السحابة تغطي جبل سيناء عند اعطاء لوحي الناموس؟ ألا نرى السحابة تملأ خيمة الشهادة ، وتستقر على تابوت العهد في قلب قدس الأقداس معلنة بذلك حضور الرب المبارك وسط شعبه ؟ - ألا يتحدث أيوب عن الإله الذي جعل السحاب لباسه ، والضباب قماطه ؟ أما النبي حزقيال فيرى مجد الله في صورة سحابة عظيمة وحولها لمعان ؟ رؤيا ملاك العهد الذي تحيط به سحابة بيضاء .

٢ - وهو يركب الغمام في نجدته لأتقيائه :

نعم . يركب السماء في معونتك . هذا هو الإله الذي عرفه الأقدمون محاربا عنهم « قفوا وانظروا خلاص الرب ». الإله الذي اختبره يعقوب في البرية كالسلم النوراني، الذي يصل الأرض بالسماء . الإله الذي أنقذ شعبه من أرض مصر بيد قوية . الإله الذي سمع الشعب صوت خطواته على قمة أشجار البكا . الإله الذي رآه ايليا في العاصفة و الزلزلة ، والنار ، والصوت المنخفض الخفيف .. هذا هو إله القديم ، وإله الحديث .. الكائن ، والذي كان ، والذي يكون . هذا هو الإله الذي عرفه الملك حزقيا منقذا ، ومحاربا ، وعرفه سنحاريب ملك أشور ساحقا وضاربا . يقول يسوع « ها أنا معكم كل الأيام الى انقضاء الدهر » « لا تخف أيها القطيع الصغير »

٣- الإله الذي يركب الغمام في تجربته لأبنائه :

وما هو الغمام ؟ انه السحاب الاسود ، السحاب المظلم . ألا نرى في هذا اشارة الى أن الله يأتي الينا ، في السحابة السوداء ؟ نعم . قد يسمح الله بالتجارب ، والمتاعب ، الضيقات ، الأزمات ، الآلام ، الأمراض ، الدموع ، وقد يسمح بأن يجيزنا في وادى ظل الموت ، وذلك لتنقيتنا، وتلميعنا، وزيادة ايماننا، و بنياننا بأكثر قوة على صخر الدهور . وطوبى للرجل الذي يحتمل التجربة لأنه اذا تزكي ينال اكليل المجد الذي وعد به الرب الذين يحبونه.

اننا في تجاربنا كثيرا ما نهتف له مع تلميذى عمواس قائلين « هل أنت متعرب عن أورشليم ؟ هل أنت متغرب يا اسيدى عن القاهرة، وعن كل المدن التي يعيش فيها عديدك ؟ هل أنت متعرب عن آلامنا ومتاعبنا ؟ كلا • ليس هو بالبعيد عنا .. ليس هو نظير البعل الذي صلى له أتباعه وهم يقطعون أنفسهم بالسيوف صارخين (يا بعل اسمع لنا » وايليا يهزأ بهم قائلا « لعله نائم ، أو لعله في سفر) ان إلهنا حتى ولو سمح بتجربتنا ، فانه معنا في الأتون المحمي سبعة أضعاف ، وهو لا يدعنا نجرب فوق ما نستطيع ، بل سيجعل مع التجربة المنفذ ، أن الغمام المظلم ، هو السحاب المحمل بالأمطار ، وكما يقول سبرجن « آن حديبنا قد يرسل الينا خطاب محبته وبركاته في غلاف أسود »

4- الإله الذي يركب الغمام ، لاختطاف أحبائه :

نعم سوف يأتي حبيبنا الينا ، على سحاب المجد . لاختطافنا، حينما تدق الساعة المعينة من الآب.

لأن الحبيب بصوت ملائكة ، وبوق الله ، سوف يأتي الينا . ليقيم الموتى مع قديسيه ، ويغير الجميع في لحظة، في طرفة عين ، ونخطف لملاقاة الرب في السحب .

على جبل الصعود ، وقف التلاميذ ، يتطلعون الى فوق إلى المسيح الصاعد لمجده ، وكأني بهم يقولون له « وعلى من يا سيدى سنتركنا ؟ على من ستترك الغنيمات القليلة التي التفت حولك ، وأنت تعرف انها كحملان وسط الذئاب ؟ واذا بالملاكين يقولان لهم « ان يسوع هذا الذي ارتفع عنكم الى السماء سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقا الى السماء » و آخر كلمة في خطاب الحب الذي أرسله عريسنا الى - عروسه على الأرض هي هذه « ها أنا آتى سريعا »

ا« آمين تعال أيها الرب يسوع »

5 - الإله الذي يركب الغمام في دينونته لأعدائه:

وقد لا نرى ذلك يحدث سريعا : قد نقول مع المرنم آساف « غرت من المتكبرين اذ رأيت سلامة الأشرار . ليس في موتهم شدائد ، وجسمهم سمين • ليسوا في تعب الناس ومع البشر لا يصابون ». ا

لكنه سرعان ما يؤوب الى الحق ، فيقول : « حتى دخلت مقادس الله وانتبهت الى آخرتهم . حقا في مزالق جعلتهم أسقطتهم الى البوار . كيف صاروا للخراب بعتة اضمحلوا فنوا من الدواهي » وسوف يأتي اليوم المعين من قبل الله ، الذي يتحدث عنه ملاخي قائلا « هوذا يأتي اليوم المتقد كالتنور ، وكل المستكبرين ، وكل فاعلى الشر ، يكونون قشا ، ويحرقهم ذلك اليوم الآتي فلا يبقى لهم أصلا ولا فرعا » . « حينئذ يبتدئون يقولون للجبال اسقطى علينا، ولككام غطينا من وجه الجالس على العرش » - ويقول كاتب سفر الرؤيا « هوذا يأتي مع السحاب وستنظره كل عين ، والذين طعنوه . وتنوح عليه جميع قبائل الأرض »

هذا هو الظهور الثاني لدينونة أعدائه ، بعد أن يخطف اليه في الظهور الأول ، أتقياءه وأحباءه ٠٠ ومع ذلك نقول بأن للخطية دينونتها القاسية في هذه الحياة ... لها يوم دينونة في السمعة، والكيان والجسد ، والمخ ، والأعصاب والحواس . فالشر يميت الشرير وأجرة الخطية هي موت . أما هبة الله فهي حياة أبدية .

ثالثا : الإله الذي يركب الغمام ماذا ينبغي أن يكون موقفنا منه ؟

في كلمات قليلة على سبيل الختام نقول .

1- لنعبده بخشوع أكيد :

فذاك العظيم العالي الرفيع على عرشه ، الممجد من ملائكته ؟ الذي ليس هناك مثله ، كم ينبغي علينا أن نهتف أمامه (قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد » « الرب في هيكل قدسيه فاسكتى قدامه يا كل الأرض »

2- لنلق أنفسنا عليه بالإيمان الوطيد :

واثقين بقدرته ، ومحبته ، وعنايته بنا . « لأنك قلت أنت يا رب ملجأى ، جعلت العلى مسكنك ، لا يلاقيك شمر ، ولا تدنو ضربة من خيمتك » .

٣- ولننتظره في ملء الرجاء السعيد :

ساهرين ممنطقين أحقاءنا ، ونحن مثل أناس ينتظرون العريس (طوبى لذلك العبد ، الذي اذا جاء سيده يجده ساهرا »

ملاحظات ختامية

1- هو إله الغمام ، حذار من نقمته :

من بين المعجزات الباهرة التي أجراها الرب في أندونسيا مؤخرا، ما حدث لأحد المرسلين الذين وفدوا لاحدى الجزر هناك لتقديم رسالة الحياة الذين في الظلمة وظلال الموت ، فقد كان هناك ساحر استولى على قلوب الناس ، بالمعجزات الشيطانية التي كان يجريها ، وكانت له المقدرة ، على أن يثبت أنظاره على حيوان يجرى - كلب مثلا - فيسقط الحيوان مينا . وحينما وفد المرسل رأى الساحر أن الناس قد التفوا حوله ، وأن تجارته أصبحت خاسرة . وبالطبع كان لابد وأن يتحداه وقال له سوف أثبت أنظاري عليك ، ويكون مصيرك . مصير هذا الكلب . وتحدد موعد لذلك في يوم قادم ، يجلس فيه الاثنان أحدهما مقابل الآخر ، ويثبت الواحد أنظاره على الثاني لمدة دقائق ، ليثبت الواحد انتصاره على الآخر .

وجاء اليوم المحدد ، وارتفعت الصلوات الحارة من أولئك الذين عرفوا الحياة في يسوع المسيح - وكانت صلواتهم بدموع وهم يهتفون « ليس لمجدنا نحن يا رب ، بل لمجدك أنت . لماذا يقول الوثنيون أين إلههم؟ »

وبدأ الساحر بدوره ٠ وراح يركز أنظاره على المرسل ، وهو يتمتم بتعاويذه ، وطلاسمه . ولم يحدث شيء، واستبد به الضيق ، فصار يخبط برجليه ، ويلوح بيديه حتى استنفد الوقت المحدد له ، والمرسل جالس في مكانه يبتسم في سلام .

وعند ذاك أتي دور المرسل فرفع يديه أمامه وهو يقول « باسم يسوع المسيح ، لتكن يده عليك، حتى يعرف الجميع أين هو إله الحق »٠

وما لبث الساحر أن بدأ يترنح يمنة ويسرة ، وهو يحاول أن يسند نفسه بيديه ، ثم سرعان ما انكفأ على الأرض فاقدا الأنفاس وعندها تقدم منه المرسل ، وأمسك بيده وهو يقول « ولكي يعرف الجميع أن يسوع المسيح هو رب الحياة ، كما أن له سلطانا على الموت ، باسم الرب يسوع ، قم من رقدتك) وأقامه فعادت اليه الحياة

٢ - هو إله الغمام أطمئن في رعايته :

أن الصورة التي يقدمها يسوع في مثل الراعي الصالح ، كما أورده البشير يوحنا، في قوله : « ومتى أخرج خرافه الخاصة يذهب أمامها، والخراف تتبعه » ، تصور لنا الراعي في مقدمة الخراف ، وليس في مؤخرتها - لماذا ؟ لكي يجابه الخطر ، مدافعا عن خرافه . فحينما يأتي الذئب مهاجما ، لايجد أمامه سوى الراعي الذي يكون على استعداد أن يبذل نفسه عن رعيته ، في دفاعه عنها ، وكم من قصة تروى عن رعاة بذلوا حياتهم في سبيل الخراف.

وفي معركة الصليب ، ألم يتحقق القول « أنا أضع نفسي عن الخراف ؟ لقد أنشب الشيطان الذئب الأكبر أظفاره في جسد مخلصنا ، حتى ننال نحن النجاة .. لذلك ما أحرانا أن نلجأ دائما الى دائرة الرعاية والمحبة الإلهية التي اقتناها لنا الرب بدمه ، ودفع فيها حياته ؟ وهناك نتمتع بالرعاية الكاملة.

الرب يستخدم هذه العظة لمجد اسمه

منقولة من كتاب (لا تخف لسنة 1989) تم التنسيق والتصحيح لبعض الكلمات

صفوت زكي سمعان